مهيار الديلمى

دراسة شعره على نسبيته

لئن كان في الامثال القائمه اليوم من حولنا فى ميدان الادب ونهضة الثقافة، كما يقولون، من مثل يصح أن يدل على شيء من الافراط فى احتذاء الاساليب التى رسمها لنا أدباء القرن الماضى، أو من التفريط في دراسة نبغاء لا تعرف لأى سبب من الاسباب ظلوا مهملين طوال العصور، فان اغفال اسم مهيار الديلمى لمن أخص تلك الامثال. وكذلك لا تعرف لأى سبب من الاسباب عكف الادباء على دراسة بعض شخصيات بائرة، غير أنها على جدبها وبورها خصت فى كل عصور الادب العربى بأقصى ما بذل الادباء والباحثون من عناية بالبحث والاستقصاء. وهل تجد أن اسم مهيار بين الادباء والشعراء، بأسعد حظا من ابن الرومى؟ وكلاهما شاعر فحل وكلاهما عبر عن نزعات قامت من حوله و رسم فى الشعر الجزل صوراً استحالت اليها نفسيته، وما هى إلا صورة الحياة الصحيحة تجلت في أوضاع لغة، كلاهما كان عنها غريبا، وكلاهما استوعبها استيعابا يدل على نبوغ أصيل وعبقرية موروثة؟

لا نعرف من هذا إلا أن في الحياة سراً كامنا يحرك ظواهرها على مقتضى ظروف نعرفها، ولكننا لا نستطيع أن ندرك من مؤثراتها شيئا. لماذا يكون أبو نواس سمر الادباء فى كل عصر، ولماذا يظل المتنبى قبلة المتأدبين في كل آن ولا يذكر اسم مهيار أو اسم ابن الرومى مرة، إلا بعد أن يذكر شعراء أقل منهما في الادب منزلة وأدنى منهما فى الشعر مكانة كديك الجن وصردر وأبو الشمقمق، ألوفا من المرات؟ السبب فى هذا تكاد تلمسه اذا أنت نظرت في الفرق بين شعر تجود به سليقة مستمدة من خيال آرى، وآخر تخرجه سليقة تستمد من خيال سامى الاصل. والفرق بين العقل الآرى بكل توابعه، مباين جهد المباينة للعقل السامى: فالفرق بينهما جلى في المدنية التى أخرجها كلاهما، كما هو بين فى صور الدين والشعر والموسيقى و بقية

الفنون . فان أخص ما يمتاز به العقل الآرى حب التنويع والقدرة على الجمع بين المتناقضات. ففى دين فارس الآرية وفى عصرها الوثنى تجد أن الاصل في العالم عنصران عنصر النور وعنصر الظلام، يمضيان متعاقبين ، أحدهما يمثل الخير والآخر يمثل الشر، في حين أنك لا تجد في الاديان السامية من شيء سوى التوحيد المطلق من كل قيد اللهم إلا فكرة الوحدة الآخذة باطراف العقل من كل جهاته. وهكذا الحال في الفنون على اختلاف صورها وعلى تشعب مناحيها، تجد أن فكرة الجمال قد اتحدت في العقل الآرى بفكرة الألفة اتحادا تاما .في حين أن العقل السامى لم يدرك إلا فكرة الجمال، وعجز عن أن يكون من بين الاجزاء المفردة الجميلة بحق وحدة فيها ألفة تلتئم ومافي أجزائها من جمال .

أتخيل أن هذا سبب من أخطر الاسباب التى من أجلها لم يستسغ العقل السامى شعر مهيار ولا شعر ابن الرومى .على أنك لا تقع في ظاهر شعرهما على شيء ينفر منه الادب أو تأباه الديباجة العربية . ولكن السبب خفى لا تستطيع أن تقول ماهو؟ غير أنه فى غالب الامر ما ذكرنا من الفرق بين منتجات العقل الآرى، ومنتجات العقل السامى، اذ تعكس كلتيهما على النفسيات المختلفة صورا لا نستطيع لدقتها أن نحدد أثرها فى الانفس والعقول تحديدا تاما .

وكذلك الحال اذا نظرت في الفلسفة التى أنتجها العقل الآرى ، والفلسفة التى أنتجها العقل السامى . فانك تجد مثلا أن أحط صور الغيبيات التى أنتجها العقل الآرى ، لا تطاولها أرقى الصور الغيبية التى أنتجها العقل السامى فى الفلسفة: وكذلك الحال فى العقل السامى ، فان أحط صور التوحيد التى أنتجها العقل السامى لا تطاولها أرقى الصور التى أنتجها العقل الآرى فى الدين . ولأى من الاسباب لم يعش دين المسيح عليه السلام في بيئته السامية الاصلية ؟ لانه بثالوثه المعروف مناف لاوضاع العقل السامى ولخصائصه ، بقدر ماهو ملائم لنزعات العقل الآرى. لهذا نزح الى أوربا ليعيش هنالك ، فى ثنايا العقل التيوتونى المستمد من العقل

الآرى وراثة ومنزعا

* * *

أما شاعرنا الذى نريد أن نتكلم فيه اليوم فهو مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسى الديلمى. ومهيار ومرزويه اسمان فارسيان أصيلان في الفارسية عريقان في العجمة، فلا مطعن اذن فى نسبته الفارسية. لا من ناحية التاريخ. ولا من ناحية النسب.

كان مجوسيا وأسلم، ويقال ان اسلامه كان على يد الشريف الرضى ابى الحسن محمد الموسوى وهو شيخه وعليه تخرج فى نظم الشعر، كما يقول مؤرخو الادباء، وانه وازن كثيرا من قصائد استاذه. وتوفى سنة ٤٢٨ من الهجرة، وأسلم على التحقيق سنة ٣٩٤هـ. فكأنه عاش ستة وخمسين عاما قبل أن يدركه الاجل المحتوم. وعندى أنه لم يسلم إلا بعد أن ادرك من العمر مدى عنده استطاع أن يختار بين الاديان وأن يوازن بينها ليختار له دينا، كما سترى عندما نتناول قصيدته التى نظمها بعد اسلامه منوها بالكثير من خالاته وخصائص نفسه.

لشعر مهيار ديباجة وحدها، وفيه من متانة التركيب وحسن السبك مالا تجده فى كثير من شعراء عصره الذين انتموا الى البيئة التى حوته. غير أن طول نفسه فى قصائده قد يضيع عليه شيئا من قوة الانسجام وحسن السبك وجمال النسق. ولذا فانت لاترى مهيارا في قوة شاعريته الصحيحة بقدر ماتراه في مقاطيعه القصيرة وهى قليلة قد تبلغ حد الندرة في ديوانه الكبير. ولنأت هنا بمثالين من مقطوعاته، أحدهما في الوصف والاخر فى الفخر لنستدل بهما على أن مهيارا في مقطوعاته لايدانيه الا شاعرنا صبرى فى المحدثين. قال مهيار فى وصف النيلوفر.

ساهرة الليل نؤوم الضحى ... ريانة والارض تشكو الظما
رائحة فى السرب لم تقتنص ... ظباؤه إلا بامر الدجى
ملتثم فوها وان لم تكن ... في شفتيها مالها من لما
حية ماء ناقع سمها ... وناقع سم الافاعي الصفا

تعطيك منها ألسنا عدة مجتمعات كلها فى لها

وأنت اذا تأملت هذا الوصف وأطلت فيه التأمل وقعت على نزعة مهيار ، فهوفى وصفه للنيلوفر لم يتناول أخذه بالنفس وجمال زهره أو أريجه أوغير ذلك مما يتناوله شعراء العرب فى وصفهم بل وصف النيلوفر وصف شاعر تغلب فى عقله نزعة الاستقراء والاختبار والمشاهدة ، وهي نزعة من أخص ماطوى عليه العقل الآرى من النزعات

وأما المقطوعة الثانية فيقول فيها مفاخرا :

أعجبت بى بين نادى قومها أم سعد فمضت تسأل بى
سرها ما علمت من خلقى فأرادت علمها ماحسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهامو وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى ، علا ايوانه ، أين في الناس أب مثل أبى
سورة الملك القدامى ، وعلى شرف الاسلام لى والادب
قد قبست الملك عن خير أب وقبست الدين عن خير نبى
وضممت الفخر من اطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

وهذا من بالغ الفخر الذى تتجلى فيه نفسية ذلك الشاعر الكبير وعظمته ، وهى ان بلغت من الدلالة على عزة نفسه ونزعته القومية وأثر الدين ، فانها لتدل على انه لم يلجأ الى المديح إلا مما شاة للروح التى سادت فى عصره ، تلك الروح التى كان يلجأ اليها الشعراء لجوء الحاجة طورا ومتابعة لقضاء المآرب السياسية طورا آخر. على أن قوم مهيار الذين سادوا الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب ، القوم لم يسعد قوم غيرهم بفخر كفخر شاعرهم الاعجمي أرومة ، العربى لغة ومنزعا. فاين من هذا قول المتنبي مثلا

أطارب خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وماقولى كذا ومعى الصبر

بل أين منه قول شاعرنا البارودى

اذا استل منا سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

فان الخيل التى من فوارسها الدهر، والسيوف التى تتفزع الافلاك اذا ما استلت، ليست بشىء إلا خيال الشاعر العبقرى مصوغا فى الكلام، ولكن القوم الذين سادوا الدهر ومشوا فوق رؤوس الحقب، هم قوم من المستطاع أن تظهر كيف سادوا الدنيا، و بقية العالم فى ظلام، وكيف مشوا فوق رؤوس الحقب اذ كانوا، حتى فى زمان لمدنية الغربية، سادة الفكر الانسانى، وهم بعد مغزوة أرضهم، منكسة أعلامهم.

* * *

الظاهر من شعر مهيار ومن كثير من حالات حياته، أن اسلامه كان صادقا، وانه اخلص لدينه المنتحل اخلاص أهله لدينهم الوثنى القديم. فلست ترى فى كل شعره موضعا واحدا يدل على حنينه الى دين آبائه الاولين، بل ولا خطرة فكر يفيض بها بيت من ابياته بحيث يمكن أن تستدل منه على أن كوامن نفسه قد تحركت ساعة واحدة بحنين لوثنيته الاولى. ذلك دليل على انه اسلم للاسلام مقتنعا راضى النفس مرتاح الضمير لان يتبدل الوثنية بالاسلام. على الضد من كثير ممن اسلموا اسلاما ظاهرا كابن المقفع مثلا فان الروايات عن اسلامه كثيرة والقصص من حوله متشاكلة وجوهه. فقد روى أنه مر يوماً ببيت نار من بيوت الزرادشتيين فتمثل بقول الأحوص:

يادار عاتكة الذى اتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

انى لامنحك الصدود وانني قسما اليك مع الصدود لأميل

أما فى شعر مهيار فلم أجد شيئا من هذا بل ولم أقع على رواية تدل على نزعة نفسه الى الوثنية ناظما أو متمثلا بقول غيره. وإن فى قصيدته التى نظمها لما أن من الله عليه بالاسلام ولما أن صرفه الله عما كان يتردد فى صدره من ميل الى النصرانية كما يقول مؤرخوه

لبلاغا وعظة واسترسالا وان دل على شيء فانما يدل على صفاء النفس وراحة الضمير والدعوة الرشيدة لمعتقده الثابت وهي قصيدته التي يقول فيها :

دواعي الهوى لك أن تجيبا ... هجرنا تقي ماوصلنا ذنوبا
قفونا غرورك حتى انجلت ... أمور أرين العيون الغيوبا
نصبنا لها أو بلغنا بها ... نهى لم تدع لك فينا نصيباً
وهبنا الزمان لها مقبلا ... وغصن الشباب غضاً قشيباً
فقل لمخوفنا أن يحول ... صبي هرماً وشابا مشيباً
وددنا لعفتنا أننا ... ولدنا اذا كره الشيب شيباً
وبلغ أخا صحبتي عن أخيك ... عشيرته نائياً أو قريباً
تبدلت من ناركم ربها ... وخبث مواقدها الخلد طيباً
حبست عناني مستبصراً ... بأية يستبقون الذنوبا
نصحتكم لو وجدت المصيخ ... وناديتكم لو دعوت المجيبا
أفيئوا فقد وعد الله في ... ضلالة مثلكم أن يتوبا

ومن هذه القطعة وحدها تقع على عدة صور استحالت اليها نفسية مهيار قبل اسلامه ، وتستدل على حالات كثيرة نعددها هنا استيفاء لشيء من مستفيض البحث اذا نحن أردنا أن نتابع الكلام في مهيار بما يستحق من الاجلال وبما يشغل من مكانة في عالم الأدب .

أولا — أنه تابع الهوى وجرى وراء موحيات الشهوة أشواطاً .

ثانيا — أنه كشف له عن الغيب حتى انجلى لعينيه فأبصرتا ما كان خافيا وشهدتا ما كان غيبا ، ولعل في هذه الاشارة دليلا على أنه اشتغل بالتصوف حينا قبل أن يعتنق الاسلام ، وليس بغريب أن يشتغل فارسي يتاقى عن الشريف الرضي الادب والعلم بالتصوف ، وأن يجارى أهل الباطن في طرقهم المشعبة. أما إذا

صح هذا ، فاننا ننسب أغلب مافي شعره من رنة الحزن وعميق الهم الى اشتغاله بطرق المتصوفين .

ثالثا — أنه نصب للبحث وراء تلك الامور والزمان فى إقباله أى فى شرخ شبابه وفتوته ، ومن هذا يستدل على أنه لم يسلم الا بعد أن قضى طور الشباب فاذا كان قد أسلم وهو فى الثلاثين من عمره ، وكان إسلامه في العام الذى نظم فيه هذه القصيدة (٣٩٤) ووفاته فى عام (٤٢٨ هـ) فكأنه عمر الى منتصف العقد التاسع ، وأنه لم يمت الا في الخامسة والثمانين .

رابعا — أنه أرشد قبل اسلامه حتى لم يبق لدواعى الهوى في نفسه من نصيب .

خامسا — أنه بقى عهداً يتراوح بين عقيدتى الاسلام والنصرانية وأنه مامن سبب رجح عنده كفة الاسلام الا اشتغاله بآداب العرب ومعاشرته للمسلمين ، وتمكنه من أسباب اللغة العربية التى هي لغة القرآن ، نواة الاسلام الحية الباقية على الدهور .

* * *

لا تجد في شعر مهيار من صفة ظاهرة جلية تعبر عما استحالت اليه نفسه من الصور إلا صفة النواح على الدهر وعلى صروفه ونظره في الحياة نظر الزاهد فيها الكاره لها . غير أن زهده في الحياة غير مشوب بشىء من التشاؤم فلا هو من طابع أبى العلاء ، ولا هو من رصفاء الخيام ، بل هو فى زهده عن الحياة ، و بعده عن الصورة المألوفة لشعراء عصره ، نسيج وحده .

والظاهر أن الدهر قد نال من مهيار بما ينال به من النبغاء ذوى العبقرية ، إذا هو ناء عليهم بخصاصة أو عضهم بناب من الفقر أو خصهم بسوء الحظ وسد في وجوههم كل باب فتح لغيرهم من أمثالهم ولكثير ممن هم أقل منهم في الادب قدراً وأحط منهم في العلم مكانة : ولهذا تراه فى شكواه من الزمان ومن أهله مثال

الصبر والشجاعة ، ومثال من الأمل الحي الذى تفيض به الأنفس الكبيرة التى لاتعرف من اليأس الا اسمه ، وكثيراً مايبقى أملهم حيا بين جنوبهم حتى يطوى مع أبدانهم في أكفان الابدية . لهذا نجتزىء ببضعة قطع من شعره تدلك على حقيقة نفسه وعلى أمله العريض فى الحياة . قال .

فمالى أرى الايام تنحى ... على مع المشيب وهن شيب
عذيرى من بخيل الوديحوى ... حقيبة رحله فرس نجيب
وفي لى وهو مخصوص وأضحى ... غداة ارتاش وهو على ذيب
ومحسور على تضيق عنى ... خلائقه وجانبه رحيب
لطيت له فقر بلين مسى ... ورب كمينة وبها دبيب
تدق عضاض مختمر أخيفت ... جوانبه وفي فيه نيوب
فان الصل يحذر مستميتا ... وتحت قبوعه أبدا وثوب
أنانى بعض مايرضى فلو ما ... غضبت حمانى الانف الغضوب
ومن هذا يرد عنان طرفى ... اليك ان استمر بى الركوب
سترمى عنك بى ابلى بعيداً ... وتنتظر الاياب فلا أؤوب

وقال من قصيدة أخرى .

على أى أخلاق الزمان أعاتبه ... وما هو الا صرفه ونوائبه
تفرى نديمى وهى بتر شفاره ... وخافت جروحى وهو صم مخالبه
ندوب تقفى هذه بعد هذه ... وداء إذا ماباح أوقد صاحبه
شغلت يدى حينا بعد ذنوبه ... وزدن فقد تاركته لاأحاسبه
طرحت سلاحى وانتزعت تمائمى ... وضار به ينحى على وسالبه
ببيض من الايام هن سيوفه ... وسود من الليلات هن عقاربه
أدامجه حتى يرانى راضيا ... مراراً وأعصى مرة فأغاضبه

وله شكوى بالغة في قصيدة مطلعها .

دعها تكن كالسلف من اخواتها تجرى بها الدنيا على عاداتها

ولعله كتبها في بدء عام جديد . وفيها يقول .

ماهذه ياقلب أول عثرة قذفت بك الاطماع في لهواتها
هي ماعلمت وان ألمت لفضلة من ثقل وطأتها وحد شباتها
كم خطوة لك في المنى أزليقة لم تنتصر بلعا على عثراتها
وذخيرة طفقت يداك تضمها والدهر خلفك مولع بشتاتها
ووثيقة ألجأت ظهرك مسندا بغرورها فسقطت في مهواتها

ومن هذه القصيدة هذه الابيات المشهورة .

إن كان عندك يازمان بقية مما يضام به الكرام فهاتها
صبراً على العوجاء من أقدارها لابد أن تجرى على ميقاتها
ولعلها بالسخط منك وبالرضى أن تستقيم طريقها بحداتها

أما مراثيه فأقربها إلى مراثى أبى العلاء ديباجة وأمتنها عبارة ، وأكثرها نسجاما ، فمرثيته في أستاذه وصديقه ورفيق حياته الشريف الرضى وهى من أمتن مراثى العرب ومطلعها .

أقريش لالفم أراك ولا يد فتوا كلى غاض الندى وخلا الندى
خولست فالتفتى بأوقص واسألى من بز ظهرك وانظرى من أرمد
وهبى الدخول فلست رائد حاجة تقضى بمطرور ولا بمهند
خلاك ذو الحسبين انقاضا متى تجذب على حبل المذلة تنقد
فاذا تشادقت الخصوم فلجلجى واذا تصادمت الكماة فعردى
ياناشد الحسنات طوف قاليا عنها وكاد كأنه لم ينشد
عادت أراكة هاشم من بعده خورا تفأس الحاطب المتوقد

وفيها يقول .

أنفقت عمرك ضائعا فى حفظها وعققت عيشك في صلاح المفسد

كالنار للسارى الهداية والقرى ... من ضوئها ودخانها للموقد
من راكب يسع الهموم فؤاده ... وتناط منه بقارح متعود
ألف التطرح فهو ماهددته ... يسرى فواق البيد غير مهدد
يطوى المياه على الظما وكأنه ... عنها يضل وإنه للمهتدى
صلب الحصاة يثور غير مودع ... عن أهله ويسير غير مزود
عدلت جويته على ابن مغازة ... مستقرب أمم الطريق الابعد
يجرى على إثر الضراب كأنه ... يمشى على صرح بهن ممرد
يمشى الوهاد بمثلها من مهبط ... وربى الهضاب بمثلها من مصعد
قرب قربت من التلاع فانها ... أم المناسك مثلها لم يقصد
رأبا به حتى تريح بيثرب ... فتنيخه نقضا بباب المسجد
واحث التراب على شحوبك حاسرا ... وانزل فعز محمدا بمحمد
وقل انطوى حتى كانك لم تلد ... منه الهدى وكأنه لم يولد

ومنها ،

ولئن غمزت من الزمان بلين ... عن عجم مثلك أو عضضت بأدرد
فالسيف يأخذ حكه من مغفر ... وطلى ويأخذ منه حد المبرد
لو كان يعقل لم تنلك له يد ... لكن أصابك منه مجنون اليد

وانى أجتزىء من هذه القصيدة بهذه الابيات ولو طاوعت قلمى لجرى بها كلها فليس فيها موضع تفضله على سواه وليس فيها من معنى أو تركيب أو سياق يقف في سبيل ذوقك الادبى وهي من ألفها الى يائها على هذا النحو من قوة السبك وحسن البيان .

* * *

ومهيار نسيبه قليل . وتشبيبه أقل . ولعل صروف زمانه قد صرفته عن

التغنى بالحسان والتشبيب، بمن على أن له في هذا المجال جولات يبز بها كثيراً من الشعراء نذكر له شيئا على سبيل الاستدلال . قال .

سلمت وما الديار بسالمات ... على عنت البلى يادار هند
ولا برحت مفوقة الغوادى ... تصيب رباك من خطأ وعمد
بموقظة الثرى والترب هاد ... ومجدبة الحيا والعام مكدى
على أنى متى مطرتك عينى ... ففضل ماستقاك الغيث بعدى
أميل اليك يجذبنى فؤادى ... وغيرك مااستقام السير قصدى
وأشفق أن تبدلك المطايا ... بوطأتها كأن ثراك خدى
أرى بك ماأراه فمستعير ... حشاى وواجد بالبين وجدى
وليتك اذ نحلت نحول جسمى ... بقيت على النحول بقاء عهدى
وما أهلوك يوم خلوت منهم ... بأول غدرة للدهر عندى
سل الايام مافعلت بأنسى ... وعيش لى على البيضاء رغد
وفي الاحداج من رشأ حبيب ... على ثوبيه من صلة وصد
يماطل ثم ينجز كل وعد ... ولم ينجز بذى العلمين وعدى

و بعد. فهذا مهيار بن مرزوية الديلمى ما أن نصفه لك بوصف أو ننعته لك بنعت ، وما ان نصور لك صورة من نفسيته ، فان شعره وديباجته لاوثق فى الادب من أن يحيط بهما قلم كاتب مثلى، وانهما لاعرق فى الادب من كثير مما يجرى على ألسنة المتأدبين في هذا العصر. فهل هذا الجيل يكون من مهيار ومن شعره وأدبه الجم أوفى حظا وأوفر نصيبا من أسلافه الاقربين ؟